مشيخة الغزاة ودورها في الدفاع عن غرناطة في ظل دولة بني الأحمر ما بين (661-741هـ/1262-1340م)

طالب ماجستير: أحمد سليمان سليم

قسم: التاريخ – كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة البعث

إشراف: أ.م.د بسام العلوش المشرف المشارك: د أحمد الدالي

ملخص البحث

عندما قامت دولة بني الأحمر على أنقاض دولة الموحدين في بلاد الأندلس، تعرضت البلاد لفوضى أثر الثورات الطامعة في أملاك الموحدين، والتي استغلتها الممالك الإسبانية في محاولة منها للسيطرة على كافة المدن الأندلسية، عرفت هذه المرحلة بحروب الاسترداد.

كان الهدف منها القضاء على شاقة المسلمين في الأندلس، وتزامنت هذه الظروف مع نشوء دولة بني مرين في بلاد المغرب، حيث كان لها الصيت في القوة والشجاعة، الذين تمكنوا من بسط سلطانهم على أملاك الموحدين في المغرب.

عندما تزايدت الهجمات الإسبانية على بلاد الأندلس طلب حكام بني الأحمر مساعدة بني مرين للتصدي لتلك الهجمات، ما لبثت أنَّ أرسلت قواتها إلى الأندلس. وكانت تتكون من ثلاثة ألاف إلى خمس الأف مقاتل عرفت هذه القوات "بمشيخة الغزاة"، وهي قوات مغربية دائمة في الأندلس لمتابعة الدفاع والجهاد عن ما تبقى من بلاد الأندلس.

الكلمات المفتاحية: دولة بني الأحمر، غرناطة، بني مرين، مشيخة الغزاة، ممالك إسبانية.

The sheikhdom of the invaders and its role in defending Granada under the rule of Bani al-Ahmar between (661-741 AH / 1262-1340 AD)

Abstract

When the state of Bani al-Ahmar was established on the ruins of the state of the Almohads in Andalusia, the country was exposed to chaos as a result of the greedy revolutions in the property of the Almohads, which the Spanish kingdoms exploited in an attempt to control all cities, and this stage was known as the wars of recovery, the aim of which was to eliminate the hardship of Muslims In Andalusia, and these circumstances coincided with the emergence of the Bani Marin state in the Maghreb, which had a reputation for strength and courage, who were able to extend their authority over the Almohad properties in Morocco. When the Spanish attacks on Andalusia increased, the rulers of Bani Al-Ahmar asked for the help of Bani Marin to confront those attacks, which soon sent their forces to Andalusia. Which consisted of three thousand to five thousand fighters. These forces were known as the "Sheikhdom of the Invaders", and they are permanent Moroccan forces in Andalusia to continue the defense and jihad for what remains of Andalusia.

Keywords:

the state of Bani Al-Ahmar, Granada, Bani Marin, chiefdom of the invaders, Spanish kingdoms.

مُقدَّمة:

عندما كانت بلاد الأندلس خاضعة لسيطرة الموحدين في أواخر أيامها تعرضت للضعف والهوان، لا سيما بعد الهزيمة الكبرى أمام جيش ألفونسو الثامن[1] في حصن العقاب على مقربة من مدينة جيان[2] في سنة (609هـ/1212م)، والتي زادت من أطماع الممالك الإسبانية في تصعيد هجماتهم على مدن وقرى المسلمين بالأندلس.

وقد فشل الموحدين في صدّ معظم تلك الثورات المناهضة لهم كثورة بني مردنيش[3] بشرق الأندلس وثورة محمد بن يوسف بن هود[4] الذي خرج من مرسية، حيث استطاع

[1] هو: ألفونسو الثامن ابن سنشو الثالث، ورث عرش قشتالة وهو في سن الحادي عشر وبدأ الحكم عندما بلغ الرابعة عشر من عمره في سنة (567هـ/1172م) عن أبية، تميز بعدائه للمسلمين ورغبته الجامحة لغزو أراضيهم، ودوره الكبير في تنشيط حركة الاسترداد؛ عنان، محمد عبدالله: دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م، ص 583.

[2] جيان: مدينة كبيرة تقع شرق قرطبة، وبينها وبين قرطبة سبعة عشر فرسخاً، وهي كورة تجمع قرى وبلدان كثيرة؛ الحموي، ياقوت بن عبدالله (ت: 626هـ/1228م): معجم البلدان، تح: عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، لبنان، د.ت، ج 2، ص 95؛ الحميري، محمد بن عبدالله بن عبد المنعم (ت: 900هـ/1495م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، بيروت، 1983م، ص 157،153.

[3] هو: الأمير محمد بن سعد بن مردنيش عاهل بالنسية، ومملكة الشرق، الثائر ضد الموحدين، والذين استطاعوا أنَّ يخلصوه معظم ما بيده، وأوقعوا بجنده الوقائع، وحاصروه بمدينة مرسية، فمات أثناء الحصار سنة (567هـ/ 1172م)؛ ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله ت:(776هـ/1373م): الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1973م، ج2، ص 121-127.

[4] هو: أبو عبدالله محمد بن يوسف بن هود الجذامي من سليل أسرة هود أصحاب مملكة سرقسطة في الشطر الأعلى، جمع أصحابه وخرج بممر الحصن المعروف بالصخور، فدعى لنفسة بعد أن سيطر على مناطق واسعة من الأندلس؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج2، ص 90-93؛ أحمد بن خالد (ت: 1315هـ/1897م): الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى، تح: جعفر الناصري و محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م،ج 2، ص 210.

السيطرة على مناطق واسعة من الأندلس بعد أن هزم عامل الموحدين أبو العباس ابن أبي عمران.

في هذه الفترة ظهرت شخصية جديدة على ساحة الصراع السياسي وهو محمد بن يوسف بن الأحمر[1]، فدخل الطرفان في صراع مرير كانت الغلبة في جلّها لابن الأحمرُ، كان تفكير ابن الأحمر منصبّاً على كيفية الوصول الى عرش السلطة، فاستعد لهذا وانعقدت علية الآمال في لم شمل المسلمين، واجتمع حوله جمع غفير من المناصرين بدايةً من أراجونة موطنه.

إذ تمت له البيعة فيها في 26 رمضان سنة (629هـ/1231م) بعد صلاة الجمعة، من ثمَّ وجه أنظاره إلى غرناطة الذي نجح في ضمها بعد أن وافقوا له على البيعة ليدخلها ابن الأحمر سنة (635هـ/1238م).

في تلك اللحظة أصبحت غرناطة عاصمة لدولته الحديثة ومقراً لحكمة، وكان مُراد ابن الأحمر حينها هو أحياء دولة الموحدين، إلاَّ أنَّ شيء كهذا كان استحالة تحقيقه بسبب الثورات الداخلية التي واجهته من جهة وهجمات الممالك الإسبانية من جهة أخرى وهو الأمر الذي حتّم عليه ضرورة الاستنجاد بالمرينيين، وأسست على غرار هذا الاستنجاد المريني مشيخة الغزاة بالأندلس، وبذلك أصبحت غرناطة وجهة المسلمين في الأندلس وملاذهم الآمن بعد سقوط مدنهم في أيدي الممالك الإسبانية.

[1] هو محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر يعدَّ المؤسس الحقيقي للدولة (649-671هـ/1232-1273م)، تلقب بألقاب عده فكان يعرف بالشيخ وأبي دبوس، فبعد الانتصارات التي حققها على ابن هود اتخذ من غرناطة عاصمة لملكة ومقراً لحكمة؛ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت: 808هـ/1406م): العبر في ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979م، ج4، ص 218.

في بلاد الأندلس تمكنت الممالك الإسبانية من السيطرة على العديد من المدن الأندلسية المهمة، إذ لم يبقَ منها سوى غرناطة، التي استطاعت الصمود أمام الأخطار المحدقة بها من كل صوب، بفضل سلطانها محمد بن يوسف بن الأحمر.

أما في بلاد المغرب فقد تمكن أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق[1] من القضاء على أخر ما تبقى للموحدين فيها وإقامة دولة بني مرين فيها، حيث بدأ عهده باستكمال بناء الدولة وفرض سيطرتها على كلَّ الأقاليم، واستطاع في مدّة قصيرة أنَّ يضبط الأمن ويرعى مصالح العباد، ويوّحد المغرب الأقصى تحت سلطانه، وبنى لنفسه مدينه البيضاء الملاصقة لمدينة فأس، وجعلها العاصمة، وأطلق عليها اسم فأس الجديدة.

تحوّلت فأس القديمة إلى مركزاً للتجارة والعلم، ثمَّ أستطاع أن يضم كلّ المدن التي كانت منفصلة عن الموحدين في المغرب إلى ملكه، وبذلك بسطت إمارة بني مرين سلطانها على شمال المغرب كلّه حتى سبتة وطنجة، استمرت في اتساعها واستقرارها حتى سنة (759هـ/1359م)، إلى أنَّ استطاعت توحيد الشمال الإفريقي تحت سلطانها، وحكمها خلال هذه المدة مجموعة من الأمراء الأقوياء، وقفوا إلى جانب الأندلسيين، بالمال والرجال ضد الخطر الإسباني، ودخلوا في معارك مع ملوك قشتالة، حققوا فيها انتصارات مجيدة.

لكن جهودهم انتهت في معركة طريف سنة (741هـ/1340م)، التي أنزلها ألفونسو الحادي عشر وحلفاؤه من الأراجونين بجيش السلطان أبي الحسن المريني، التي استولى

[1] هو: أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق، أحد ملوك دولة بني مرين، كان ملكاً صالحاً، وهو الذي أستولى على مُلك الموحدين، وأجتث شجرتهم، وورث سلطانهم، وأجتاز بلاد الأندلس مرات غازياً ومعاوناً إخوانه من المسلمين لردّ عدوان النصارى عن بلادهم، وكانت له علاقات طيبة مع ملوك غرناطة؛ ابن الخطيب: المحة البدرية، ص 54؛ ابن خلدون: العبر، ج7، ص 485.

على أثرها الإسبان على مدينة طريف ثمَّ جبل طارق، وبذلك قطعوا على بني مرين طريق العون لأهل غرناطة.

إشكالية البحث:

تكمن إشكالية البحث في أن دولة بني الأحمر كانت من أبرز الزعامات الإسلامية التي حكمت بلاد الأندلس، خاضت خلال حياتها معارك عده ضدّ الممالك الإسبانية بمساندة القوات المرينية التي عرفت باسم مشيخة الغزاة، استطاعت الصمود أمام الأعداء لحوالي قرنين ونصف من الزمن. وهذا يطرح لنا مجموعة من التساؤلات:

1. هل كان لمشيخة الغزاة دور في الدفاع عن دولة بني الأحمر؟.
2. ماهي العوامل التي أدت إلى ظهور هذه الفرقة؟.

أهمية البحث:

تتبع أهمية البحث في كونه يسلط الضوء على أهم العوامل التي أدت إلى ظهور قوات مشيخة الغزاة، واستقرارها في غرناطة.

التي استطاعت الصمود لقرنين ونصف من الزمن، وأهم أعمال هذه الفرقة في غرناطة، والدور الذي لعبته في الدفاع عنها ضدّ القوات الإسبانية.

هدف البحث: يهدف هذا البحث إلى دراسة:

1. العوامل التي أدت إلى ظهور قوات مشيخة الغزاة.
2. أهم الأعمال التي قامت بها هذه القوات.
3. دور مشيخة الغزاة في الدفاع عن غرناطة.

فرضيات البحث وحدوده:

تناول البحث فرضيات عدة عن قوات مشيخة الغزاة، والتنظيم الإداري لهذه الفرقة، وتأثيرها ودورها في الدفاع عن مملكة غرناطة ضدّ الأخطار التي كانت محدقة بها من كل صوب متمثلة بخطر الممالك الإسبانية.

حدود البحث:

يرتبط البحث في أطار زمني يحدد بدايته عام (661هـ/1261م)، وهو العام الذي كان أول عبور للقوات المرينية إلى الأندلس، ليتشكل نهايته عام (741هـ/1341م) وهو تاريخ توقف عبور القوات المرينية إلى الأندلس وذلك بعد معركة طريف وسقوط جبل طارق.

ليشمل الإطار المكاني الأجزاء الجنوبية من بلاد الأندلس متمثلة في مملكة غرناطة والمدن التابعة لها.

منهج البحث:

للإلمام بجوانب البحث وفق دراسة منهجية وعلمية تم الاعتماد على المنهج التاريخي القائم على جمع المادة العلمية من المصادر والمراجع وتحليلها ونقدها، كما أنه أعتمد على المنهج الوصفي في بعض أماكن البحث.

عرض البحث والمناقشة والتحليل:

1. تمهيد:

مع بسط بني الأحمر لحكمهم في مملكة غرناطة، على انقاض دولة الموحدين[1]، حاولت الممالك الإسبانية[2] القيام بحملات على الأراضي الإسلامية فيما عرف بحرب الاسترداد التي هدف من خلالها الإسبان محاولة السيطرة على كامل الأراضي في الجزيرة الإيبيرية وطرد المسلمين منها بشكل نهائي.

[1] دولة الموحدين: أقام محمد بن تومرت دعوته في بلاد المصامدة، حتى استطاع أحد أتباعه وهو عبد المؤمن بن علي أن يقيم دولة الموحدين على أكتاف دولة المرابطين، وحملت راية الدفاع عن الإسلام ببلاد الأندلس ضد الممالك الإسبانية، وظلت مسيطرة على بلاد المغرب والأندلس، حتى سقطت بعد موقعة العقاب سنة (609/1212م)، وأقام بنو مرين دولتهم على أنقاضها في بلاد المغرب؛ ابن أبي زرع، علي الفارسي (ت: 741هـ/1341م): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص 165؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص 250؛ الناصري: الاستقصا، ج 2، ص 242.

[2] الممالك الإسبانية: مملكة قشتالة: وهي أكبر وأضخم الممالك المسيحية مساحةً، وأشدها عداوةً وحماساً لاسترداد مدن وأراض الأندلس من أيدي المسلمين، بل وتسعى جاهدة في طرد المسلمين من بلاد الأندلس، أقامت العديد من المشاريع مع الممالك الأخرى للقضاء على المسلمين في الأندلس، وعلى ما تبقى لهم فيها ولاسيما مملكة غرناطة أقرب الأراضي إليها؛ ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله (ت: 776هـ/1373م): اللمحة البدرية في الدولة النصرية، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1980م، ص 66، 81، 108.

مملكة أراجون: والتي تقع في شرق الأندلس ومن ملوكها: الطاغية جايمش والذي تغلب على بالنسية، ثمَّ وليَّ بعده ابنه الهونش بن جايمش، وكانت أراجون تخاف من أطماع ملوك قشتالة في السيطرة على مساحات من أراضيها، لذلك كثيراً من ملوكها يعملون على تحسين العلاقات بينها وبين ملوك غرناطة؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص 81، 96.

مملكة البرتغال: والتي تقع غرب بلاد الأندلس، وهي من الممالك التي عملت على طرد المسلمين من بلاد الأندلس، والسيطرة على أراضيهم بالتعاون مع غيرها كمملكة قشتالة، ومن ملوكها: الهونش بن دونش ابن شانجة، والذي استمر الملك في نسله؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص 96، 126.

وفي خضم هذه الأحداث أرسل السلطان محمد بن يوسف بن الأحمر مؤسس دولة بني الأحمر في غرناطة العديد من الرسل يستنجد بها بني مرين لمناصرته ضد أعدائه من الممالك الإسبانية، واستأذن بذلك القائد عامر بن إدريس السلطان المريني أبو يوسف يعقوب في الجهاد بالأندلس فاغتنمها منه، وعقد له من متطوعة زناته على ثلاث آلاف أو يزيدون، وأجاز معه رحو بن عبدالله بن عبد الحق[1]، فوصلوا إلى الأندلس سنة (661هـ/1262م)، وكان أول من تولى قيادة مشيخة الغزاة هو القائد موسى بن رحو[2] ثم أخية عبد الحق ثم لغيرهما من ذو القرابة.

ولطالما نافس بني مرين في هذه الفرقة أشياخ غمارة الزناتيه[3]، وقبائل عجيسة[1]، ومغراوة[2]، والعرب المغربية[3]، وغيرهم وفي ذلك قال ابن خلدون: "ونافسهم أفيال زناته في مثلها فاجتمع أبناء الملوك بالمغرب الأوسط وطمحوا أن يكون الحكم من أصلهم"[4].

[1] هو: رحو بن عبدالله بن عبد الحق المعروف بأبي العلاء، والذي له تنسب أسرة بني العلاء التي تولت مهمة رئاسة مشيخة الغزاة، بعد أن عبر إلى الأندلس مع عامر ومحمد ابني عمه إدريس، في العبور الأول لهما للأندلس، وأستقر بالأندلس سنة (6865هـ/1287م)؛ ابن خلدون: العبر، ج 2، ص 2994.

[2] هو: موسى بن رحو بن عبد الحق كان من بين الثائرين على أبي يوسف عندما عهد إلى ابنه عبد الواحد، وقد اعتصموا بالجبال، وقام أبو يوسف بحصارهم وحاول القضاء عليهم لكن آل الأمر إلى الصلح والعفو على أن يرتحلوا إلى تلمسان ومنها إلى الأندلس، أجاز للأندلس سنة (673هـ/1274م)، وقاد عدة حروب ضد نصارى الأندلس حيث قتل حاكم دُنه، ورجع للمغرب؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص 308–309؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج4، ص 315؛ ابن خلدون: العبر، ج7، ص 488.

[3] غمارة: من أشهر شعوب البربر وقبائلهم، سموا بهذه الاسم نسبة لوالدهم غمارة بن مصمود، وقيل: غمار ابن سطاف بن مليل بن مصمود، وتزعم العامة أنهم عرب غمروا في الجبال، فمسوا غمارة، وهو مذهب عامي، وتمتد مواطنهم على سواحل البحر المتوسط من حد بلاد الريف إلى المحيط الأطلسي، ثمَّ حدثت تغيرات في مساكنهم عندما غمرت القبائل الهلالية المغرب، فاستقروا جنوب شرق تطوان على ساحل البحر المتوسط؛ منصور، عبد الوهاب،: قبائل المغرب، د.د، الرباط، 1968م، ص 325–326.

ومن هنا توجهت القوات المرينية إلى الأندلس حيث استقبلها محمد بن يوسف بن الأحمر بترحاب شديد، وقد عرفت هذه القوات باسم "مشيخة الغزاة"، وهي بذلك ستتواجد بشكل دائم على الأراضي الأندلسية متخذه على عاتقها الدفاع عن غرناطة ضد هجمات الممالك الإسبانية، قصدها ابن الخطيب بقوله: "ولم يزل ملوك بني مرين يعينون أهل الأندلس بالمال والرجال وتركوا حصة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غزاة فكانت لهم وقائع مع العدو، مذكورة، وكان عند بني الأحمر منهم جماعة بغرناطة وعليهم رئيس من بيت ملك بني مرين يسمونه شيخ الغزاة"[5].

أما عن مكان إقامتهم فقد كان لهم مكان مخصص في مدينة غرناطة العاصمة وتسمى زناته، والقيادة العامة أيضاً كانت في غرناطة، وتتفرع منها قيادات فرعية في

[1] مغراوة: فرع من زناته، استقرت في مكناسة، ثمَّ طردوا منها على يدّ قوم ينتمون إلى قبيلة صنهاجة، ويعرفون بلمتونة، وتفرق شمل مغراوة، إلى أنَّ ظهر منهم بني مرين التي استولت على الحكم، واتخذت فاس عاصمة لهم؛ الوزان، حسن بن محمد الفاسي (ت: 939هـ/1532م): وصف أفريقيا، تر: محمد حجي، محمد زنبير، د.د، بيروت، 1983م، ج1، ص 37-38.

[2] عجيسة: من بني برنس، وهم من أحد البطون البربرية، سكن أغلب بطونها بالمغرب الأوسط بجوار صنهاجة في جبل قلعة بني حماد، وهاجرت بعض بطون هذه القبيلة عندما قدم العرب، والباقي يقيم جنوب بجاية؛ منصور: قبائل المغرب، ص 336.

[3] القبائل المغربية: وهي قبائل سفيان، والخطط، والعاصم، وابن جابر من بطون جثَّم من الأثبج، وذوي حسان والشبانات من عرب المعقل، وقبائل رباح وغيرهم؛ أبو ضيف، مصطفى أحمد: أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصر الموحدين وبني مرين، الدار البيضاء، الإسكندرية، 1983م، ص 168.

[4] ابن خلدون: العبر، ج 7، ص 367 – 368.

[5] ابن الخطيب: الإحاطة، ج 1، ص 136؛ المقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت: 1041هـ/1632م): نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج 6، ص 119-120.

وادي آش[1]، ورنده[2]، ومالقة[3]، والمرية[4]، ومناطق أخرى في المملكة، وخاصة في المناطق الحدودية[5].

والحقيقة أن الوصول إلى منصب شيخ الغزاة لم يكن بالأمر السهل، فقد كانت له شروط ومؤهلات لابد من توافرها في من يتولى هذا المنصب، فلابد أن يكون من العدوة المغربية بل لابد وأن يرجع في نسبة إلى بني عبد الحق أقارب بني مرين، كما أنه لابد أن يتمتع شيخ الغزاة بالقوة والمهارة والكفاءة العسكرية، أضافة إلى الحزم والدهاء حتى يتعامل مع الوضع الشائك في بلاد الأندلس والصراع المستمر مع النصارى[6].

ونتيجة للدور الكبير الذي أدته هذا الفرقة فقد حصدت مكانة الصدارة لدى العامة والخاصة، حيث تمتعوا بسلطات واسعة تحت سيطرة سلطان غرناطة، وكان بمثابه القائد

[1] وادي آش: مدينة بالأندلس قريبة من غرناطة، كبيرة تحوطها المياه من النهر النابع من جبل شلير، وعليه أرحاء، يكثر بها زراعة التوت، والعنب، والزيتون، وأصناف أخرى، وبها حمامات، وعليها سور؛ الحميري: الروض المعطار، ص 192.

[2] رنده: مدينة قديمة تقع على نهر جارٍ، بها آثار كثيرة، وفيرة الزروع، وهي حصن بين أشبيليه ومالقة؛ الحموي: معجم البلدان، ج 3، ص 73–74؛ الحميري: الروض المعطار، ص 79.

[3] مالقة: مدينة بالأندلس عامرة من أعمال المرية، سورها على شاطئ البحر، وتقع بين الجزيرة الخضراء والمرية، وتقع على ساحل البحر المتوسط، لذلك يقصدها التجار، فتضاعفت عمارتها، وينسب إليها الكثير من العلماء؛ الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 43؛ الحميري: الروض المعطار، ص 177.

[4] المرية: مدينة كبيرة من كورة إلبيرة من أعمال الأندلس، أمر ببنائها الناصر لدين الله سنة(344هـ/955م)، وكانت باب الشرق منها يركب التجار، وفيها مرفأ للسفن وذات تجارة واسعة؛ الحميري: الروض المعطار، ص 537؛ الحموي: معجم البلدان، ج 5، ص 140.

[5] ابن خلدون: العبر، ج 7، ص 277؛ العبادي، أحمد مختار: صورة من حياة الحرب في الأندلس، منشأة دار المعارف، الإسكندرية، 2000م، ص 225.

[6] ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله (ت: 776هـ/1373م): ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تح: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1980م، ج2، ص 69.

العسكري الأعلى للقوات المرابطة في الأندلس، كما كانت تسند إلية رئاسة جميع القبائل المغربية في الأندلس، وزاد نفوذ مشيخة الغزاة حتى وصل الأمر بهم إلى عزل وتعيين سلاطين بني الأحمر، كما حدث مع السلطان أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن الأحمر سنة (725هـ/1324م)[1]، وتوليه ابنه الصبي أبي الحجاج يوسف بن محمد بن إسماعيل سنة (733هـ/1332م) [2].

أما الأسلحة التي كانوا يستخدمونها فهي التروس والرماح والسروج والدروع أتسمت بنفس الصفات التي كانت في الجيش المريني والغرناطي[3]، واستعملت نفس العدة أيضاً وفي ذلك قال ابن الخطيب عن الأسلحة التي كانوا يستخدمونها: "وسلاح جمهورهم العصي الطويلة المثناة بعصي صغار ذات عرى في أوساطها، وتدفع بالأنامل عند قذفها تسمى بالأمداس" .

بينما التشكيلات العسكرية لهذه المشيخة تألفت من شيخ الغزاة يقود جيش مكوناً من مجموعة من الكتائب وكل كتيبة على رأسها قائد له مكانته ومرتبه،[4] مكونة من مشاة، وفرسان، كما كانت تتكون من عدد من القبائل، منها غمارة الزناتية، والتيجانية، والمغراوية، والعجيسية، والعرب المغربية، والقبائل المرينية، واشتهرت هذه الفرقة بشجاعتها

[1] هو السلطان أبو الوليد إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس ابن نصر، حكم دولة بني الأحمر وعاصر ملوك المغرب الذين اختلفوا معه بسبب مدينة سبتة، مما جعلة في مواجهة نصارى الأندلس، فعرَّضه لعدة هزائم، واغتيل سنة (825هـ/1324م)؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص 78–88.

[2] ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص 93.

[3] سالم، السيد عبد العزيز: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1985م، ص 273.

[4] القلقشندي، أحمد بن علي (ت: 821هـ/1418م): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة،1914م، ج5، ص 271؛ الطوخي، أحمد المحمد: مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، تح: أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997م، ص 225.

وتكتيكها الحربي، الذي عرف باسم قبيلتهم زناته، وذاع هذا النظام الحربي في بلاد الأندلس الإسلامية والمسيحية على حد سواء، وحتى ملوك قشتالة اتخذوا إلى جانب فرقهم الثقيلة المدرعة بالحديد فرقاً خاصة من الفرسان يحاربون على طريقة الفرسان الزناتيين الخفيفة الحركة ذات الدروع الجلدية والركاب المرتفعة، وطريقة الكر والفر، وأطلقوا عليهم اسم (Genets) ويلاحظ أن الاسم مشتق من لفظ زناتة، كما لايزال لفظ زناتة يستعمل في اللغة الإسبانية بمعنى فارس[1].

وبقيت دولة بني الأحمر هي من تدفع مرتباتهم، وقد عمل السلطان محمد الخامس[2] على زيادتها، فكان المورد الأساسي لهذه الأعطيات أما عن طريق الجباية حيث قاسموا سلطان بني الأحمر في ذلك، فكثير من الأحيان هم من كانوا يفرضون الضرائب ويجمعونها[3]، أو عن طريق أعطيات السلطان نفسه، حيث كانت في العموم من الذهب وهذا حسب مراتبهم[4]، بالإضافة إلى الغنائم التي كانوا يجنونها من حروبهم ضد الممالك الإسبانية، كما كانت تقدم لهم أقواتهم وعلوفاتهم من الزرع[5].

[1] ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله (ت: 776هـ/1373م): نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تح: أحمد مختار العبادي، مراجعة: عبد العزيز الأهواني، القاهرة، ص 17.

[2] وهو: الغني بالله محمد بن يوسف الأول بن فرج الذي حكم بين (755-766هـ/1354-1363م)، وهو ثامن حكام بني الأحمر، كان محب للعلم والجهاد، أقام علاقات طيبة بدول المغرب الإسلامي وكذلك مع دولة المماليك بالمشرق الإسلامي؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص 114-115؛ عنان، محمد عبدالله: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، مكتبة الخانجي، القاهر، 1997م، ص 139.

[3] ابن خلدون: العبر، ج2، ص 2995.

[4] القلقشندي: صبح الأعشى، ج5، ص271.

[5] الطوخي: مظاهر الحضارة، ص 226.

وعلى الرغم من تلبية بني مرين لطلب السلطان محمد بن يوسف في أرسال هذه القوات كانت من وصاياه لابنه محمد الثاني المعروف بالفقيه[1] في ضرورة مراسلة بني مرين لإنقاذ الأندلس من الأخطار المحدقة بهم، والوقوف في وجه المد المسيحي، فتتابعت الرسائل لطلب النجدة، واستجاب السلطان أبو يوسف يعقوب لهم، وكان أول عبور لقواته في سنة (674هـ/1275م)، من ثم تكرر العبور مرات عدة لنجدة الأندلس[2].

2. **عوامل ظهور مشيخة الغزاة:**

والحقيقة أنه كانت هناك عدة عوامل جعلت من ظهور هذه الفرقة أمراً حتمياً عجلت به، وجعلت منه ضرورة تقتضيها الظروف القائمة ومنها:

أ. ازدياد خطر الممالك الإسبانية على غرناطة.

لا شك أن الممالك الإسبانية قامت بدور كبير في تقليص رقعة الدول الإسلامية في الجزيرة الإيبيرية، وذلك من خلال السيطرة على مجموعة من المدن الإسلامية فيها، من ثم تكثيف جهودها لطرد المسلمين منها بشكل نهائياً، ولكن لا يمكن إرجاع ذلك فقط إلى الممالك الإسبانية وحدها، إذ أن الدول الإسلامية المتواجدة هناك قد عرفت صراعات مريرة في مرحلة عرفت بعصر ملوك الطوائف حيث انتشار الفوضى والصراعات.

[1] هو: محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، عُرِف بالفقيه، وذلك لاهتمامه وحبه للعلم وانشغاله به، كما أنَّه نشأ في غرناطة وأخذ زمام الحكم بعد وفات والدة، واستمر على نهج والده في تثبيت أركان الدولة الناشئة، عُرِفَ عصر الفقيه الكثير من الفتن الداخلية والخارجية، واستطاع أن يجتاز هذه الثورات بالقضاء عليها، وقد حكم الفقيه مدة قدرها ثلاثون سنة، إلى أنَّ وافته المنيّة سنة (701هـ/1309م)؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص 34.

[2] ابن خلدون: العبر، ج 7، ص 192

وهذه الظروف شجعت الممالك الإسبانية على استغلال هذه الظروف والقيام بحملات استرداد لمدن الجزيرة.

فكانت مدينة طليطلة[1] المجاورة لمملكتهم تحتل موقع جغرافي هام وسط الجزيرة الإيبيرية، محط انظارهم فركزوا جهودهم للسيطرة عليها، وبالفعل استطاع فرناندو Fernando [2]من الاستيلاء عليها بعد حصار طويل، ولكن يبقى التراجع الكبير للأراضي الإسلامية يعود إلى فترة الضعف التي كانت أواخر الدولة الموحدية، والانهزام الذي حلّ بهم في موقعة العقاب التي كانت في سنة (609هـ/1212م)[3].

كما عرفت هذه الفترة الحساسة والخطيرة من تاريخ المسلمين بالأندلس أحداثاً أخرى ساهمت بشكل أو بأخر في ضعف المسلمين وانحصار رقعة دولتهم كالثورات المختلفة التي قامت بين المسلمين أنفسهم أو بينهم وبين النصارى الذين استغلوا تلك الظروف أحسن استغلال، فراحوا يصعّدون من حدة هجماتهم ويكثّفون من ضرباتهم على المدن الإسلامية التي أخذت تتهاوى الواحدة تلو الأخرى كقرطبة التي سقطت سنة (633هـ/ 1236م)، وبلنسية (626هـ/1238م)، وإشبيلية (646هـ/1248) ومدن أخرى عديدة[4].

[1] طليطلة: مدينة أندلسية، تقع في وسط البلاد شكلت مركز لها، وكانت مقر الملك عندما دخلها طارق بن زياد؛ الحميري: الروض المعطار، ص 393.

[2] هو: فرناندو ابن سانشو الكبير من أعظم ملوك إسبانيا النصرانية، ملك قشتالة وليون، في عهده أحرزت إسبانيا النصرانية تفوقها الواضح على إسبانيا المسلمة، ومهد حكمة المليء بالواقع المظفر لمجد اللاحقين كان يسمي نفسة بالإمبراطور وفي عهده أتسعت رقعة مملكة قشتالة أتساعاً عظيماً؛ عنان: دولة الإسلام، ج2، ص 386.

[3] المراكشي، محي الدين عبد الواحد (ت: 647هـ/1250م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: محمد سعيد العريان ومحمد العربي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط1، 1929م، ص 235-236؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص 446؛ الناصري: الاستقصا، ج 2، ص 199.

[4] المراكشي: المعجب، ص 452-453؛ ابن خلدون: العبر، ج4، ص 204-205.

ولم يبق للمسلمين بالأندلس إلا مملكة غرناطة في الجنوب، والتي استطاعت أن تقاوم ضربات النصارى لفترة من الزمن، وأصبحت بذلك المعقل الوحيد للمسلمين في الأندلس، بعد أن ترك أغلبهم مدنهم وانحازوا إليها هروباً من ضربات جيوش الممالك الإسبانية[1]، وهذا الواقع الجديد شجع الإسبان أكثر من أي وقت مضى على ملاحقتهم وتتبعهم إلى هذه المدينة أملاً في الاستحواذ عليها أيضاً، ولذلك لم يكتفوا بطردهم من تلك المدن و إنما واصلوا تتبعهم إلى مملكة غرناطة آملين بطردهم نهائياً من شبة الجزيرة الإيبيرية والقضاء على هذه المملكة الناشئة قبل أن تشتد قوتها، وكانت الفرصة سانحة لذلك فسارعوا للتضييق عليها بمحاصرتها[2].

وضمن هذه الظروف بدأت قوة جديدة بالظهور في الساحة المغربية، وهي دولة بني مرين، التي بدأ نجمها يتألق، لذلك توجهت الأنظار الأندلسية إليها طمعاً بمساعدتها، ومن بين الذين عملوا على طلب نجدة بني مرين فئة العلماء والفقهاء، ونذكر منهم عبد المنعم بن علي بن سدراي بن طفيل[3] الذي اجتهد في طلب النجدة والغوث، فكان هذا من أعظم الأسباب التي أدت إلى عبور المغاربة إلى أراضي الأندلس لنصرة دولة بني الأحمر، وكذلك فعل فقهاء وشعراء أهل الأندلس من أجل الرد على طلب الاستغاثة، فهذا الفقيه مالك بن المرحل قد نظم قصيدة يحرض أمراء بني مرين وسائر بلاد المسلمين بالمغرب على ضرورة جهاد النصارى ونصرة أهل الأندلس، وكان مطلعها:

استنصر الدين لكم فاقدموا فإنه إنّ تسلموا يُسلمُ

[1] المقري: نفح الطيب، ج 5 ، ص 263.

[2] ذنون، عبد الحكيم: أفاق غرناطة، دار المعرفة، دمشق، ط1، 1988م، ص 50.

[3] هو: عبد المنعم بن علي بن عبد المنعم بن إبراهيم ابن سدراي بن طفيل، يكنى أبا العرب، كان عالماً فاضلاً صالحاً، بارع الخط مجتهد في العبادة صاحب مكاشفات وكرامات، هو من أعظم أسباب عبور أهل المغرب لنصرة الأندلس في أيام الدولة النصرية؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج4، ص 19.

لا تسلموا الإسلام يا إخواننا وأسرجوا لنصره وإلجموا

وقد قُرأت هذه الرسالة في جامع القرويين بفاس وأبكت كل من سمعها[1]، وبهذا أصبح بنو مرين الملجأ للدفاع عن ما تبقى من أرض الأندلس.

ب. العامل الديني والرغبة في الجهاد.

إن وصول دولة بني مرين إلى حكم الأندلس كان جراء الثورات التي أقاموها ضدّ دولة الموحدين، وفي نهاية المطاف استطاعوا القضاء على الموحدين بشكل كامل وبسط سلطانهم على أرض المغرب[2]، فكان عليهم البحث عن شرعية لحكمهم، ولم يكن ذلك متوفراً إلا في الجهاد، فالجهاد والغزو اللذان كانا متاحين في الأندلس استعملا لحصد الشرعية المفقودة، وأصبحت محاولات التصدي لأطماع الممالك الإسبانية، هو المشروع الديني المريني الرئيسي، وخاصة أن بني مرين سارت على أسلاف المرابطين والموحدين التي كانت تقوم على حماية الأندلس من أطماع جيرانها المسيحيين، وكانت تلبيتهم لدعوة إخوانهم وبني جلدتهم المسلمون في غرناطة فرضاً عليهم بعدما أصبح الغرناطيون محاصرين بالعدو، ويشعرون أن فقدانهم لأرضهم أصبح قاب قوسين أو أدنى.

فبذلك وجهت أنظارها للجهاد في غرناطة، وأصبح لزاماً عليها المحافظة على ما بقي للمسلمين بالأندلس من حصون بعد أن شدد العدو غاراته عليها، كما سعى أبي يوسف إلى تحقيق حلمة القديم في جهاد الممالك الإسبانية، قال ابن خلدون في ذلك:

[1] ابن أبي زرع، علي بن عبدالله الفارسي (ت: 741هـ/1341م): الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، الرباط، ص 19.

[2] ابن أبي زرع: الأنيس، ص 182.

"وكان ليعقوب ابن عبد الحق أمل في الجهاد، وحرص عليه، فاعتزم في سلطان أخيه أبي يحيى على الإجازة لذلك، فمنعه ضنَّه به عن الاغتراب عنه، وأوعز إلى صاحب سبتة يومئذٍ أبي علي بن خلاص بمنعه منها"[1]، وفي ذلك فإن الجهاد كان يضفي على الدول المغربية الشرعية التي تنقصها، فكل هذه الدول حصلت على السلطة بالقوة، دون أنَّ تكون لها مشروعية سوى السيف والغلبة فهي في واقع الأمر ليست شرعية.

ولكن إذا شاركت هذه الدول في الجهاد والدفاع عن أرض المسلمين فهي ستكتسب الشرعية من تلقاء نفسها، فلذلك نلاحظ أن سلاطين بني مرين حرصوا على حمّل لقب المجاهد المثاغر[2]، لكن من الملاحظ أن بني مرين عندما قرروا التدخل في الأندلس لم يكن هدفهم السيطرة والحكم المباشر، بل توقف التدخل عند الأنجاد والرغبة الواضحة في الجهاد[3]، كما هدف السلطان أبو يوسف يعقوب في حروبه تلك إلى توجيه طاقات القبائل العربية التي كانت تنتهج سياسة الإفساد وقطع الطرق إلى الجهاد دفاعاً عن الإسلام، فحشود المرينيين كانت تضم أعداداً معتبرة من مختلف القبائل العربية، ومن أجل ذلك فقد حاول حكام بني الأحمر أغراء بني مرين بأن أعطوهم بعض المدن الأندلسية، فقد تنازل السلطان أبو الجيوش محمد الثالث عن الجزيرة الخضراء ورنده من أجل تشجيعهم للجهاد في بلاد الأندلس[4].

[1] ابن خلدون: العبر، ج7، ص252، 485.

[2] مؤنس، حسين: تاريخ المغرب وحضارته، العصر الحديث، بيروت، ط1، 1992م، ج3 ، ص 24.

[3] عنان، محمد عبدالله: موقف القسطنطينية وباقي العالم الإسلامي من سقوط الأندلس وآخر مسلميها وأمام الغزو الأوروبي للعالم الإسلامي عموماً، مجلة الأصالة، الجزائر، 1975م، العدد 27، ص 130.

[4] ابن أبي زرع: الأنيس، ص 394؛ ابن خلدون: العبير، ج7، ص 240.

ج. محاولة تخلص بني مرين من بعض الشخصيات.

لم يكن هدف بني مرين الوحيد من إنشاء مشيخة الغزاة هو الجهاد، أو لتلبية طلب نجدة بني الأحمر فقط، إنما وجدوا من إنشاء هذه الفرقة محاولة للتخلص وإبعاد المنافسين على العرش المريني من أسرة أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، إلى جانب أبناء عمومتهم من بني وطاس، يضاف إلى ذلك فرسان بني مرين الباحثين عن السلطة والكراسي، واستمر الحال فيمن جاء بعده من سلاطين بني مرين، فمن يريد السلطان المريني أنَّ يبعده أو من يخشى بأسه فإنه يقوم بإبعاده نحو الأندلس برسم الجهاد.

وعلى ذلك فإن ابن الأحمر استقبل أعداداً كبيرة، ومنهم من جعل قيادة الغزاة بيدهم، وقد أدى الخلاف الذي نشب بين أبناء عبد الحق إلى نشوب العداوة والنفور بين مختلف القبائل المرينية، ففر العديد منهم إلى تلمسان[1] ومنها إلى الأندلس، حيث جند الكثير منهم في أعمال الجهاد، "فبدت فيهم الشياخة، وصحبهم التقديم، وأقامت فيهم الخطة وترددت بينهم الولاية"[2].

ومن بين الذين أُبعدوا إلى الأندلس عثمان بن أبي العلاء الذي ثار على السلطان يوسف بن يعقوب بمساعدة سلطان بني الأحمر محمد الثالث، الذي شجعة على الاستيلاء على سبتة سنة (705هـ/1306م)، فقد أُبعد إلى الأندلس وتسلم رئاسة المشيخة في سنة (727هـ/1326م)[3].

[1] تلمسان: مدينة في المغرب وهما مدينتان متجاورتان مسورتان، بينهما رمية حجر، إحداهما قديمة والأخرى حديثة، والحديثة أختطها الملثمون ملوك المغرب، واسمها تافرزت، فيها يسكن الجند وأصحاب السلطان، واسم القديمة أقادير، يسكنها الرعية؛ الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 44.

[2] ابن الخطيب: الإحاطة، ج4، ص 315.

[3] ابن أبي زرع: الأنيس، ص 387؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص 60؛ الناصري: الاستقصا، ج3، ص 82.

كما كان الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن بن السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني، والذي لجأ إلى بلاد الأندلس بعد أن ضاقت به الأحوال في بلاد المغرب من تسلط الوزير عمر بن عبدالله بأمور دولة بني مرين، هذا إلى جانب سوء المعاملة التي وجدها من أبناء السلطان أبي الحسن المريني وأبناء عمومته له، فنزل على السلطان الغرناطي الغني بالله وعلى وزيره ابن الخطيب والذي عقد له على مشيخة الغزاة مكان ابن عمه علي بن بدر الدين وذلك في سنة (768هـ/1366م)[1].

ونافلة القول أن هذه الشخصيات شكلت خطر على دولة بني مرين، لكن في المقابل لم تكن عبئاً على مملكة غرناطة، بل استفادت منها في توظيف شجاعتهم في حروبها مع الأعداء، فكانت لهم وقائع مذكورة وأعمال جهادية مشرفة.

3. أهم المعارك التي خاضتها مشيخة الغزاة.

إن المهمة الأساسية لمشيخة الغزاة هي تولي الدفاع عن غرناطة، ورد الهجمات المتكررة من قبل الممالك الإسبانية، وتجلى ذلك خاصة في أحداث سنة (693هـ/1293م) حيث قام السلطان أبي يوسف بن يعقوب المريني بحملة مؤلفة من خمسة آلاف جندي بقيادة وزيره عمر بن أبي السعود الجشمي لحصار مدينة طريف التي سيطر عليها القشتاليين، فأمده السلطان محمد بن الأحمر بجند قليلة العدد، بقيادة أحد أبناءه، وعقد لعبد الله بن أبي العلاء على جند زناته لمعاونه السلطان، ولم تسفر الحملة عن نتائج سوى الخسائر في الأرواح، راح ضحيتها شيخ الغزاة عبدالله بن أبي العلاء

[1] مؤلف مجهول (ت: في القرن الثامن عشر): الحل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1979م، ص 34؛ ابن خلدون: العبر، ج7، ص 501.

(693هـ/1293م)[1]، كما كان لها دور كبير لا سيما في حملات فرناندو الرابع ملك قشتالة، على مملكة بني الأحمر، فقد سيطر على الجزيرة الخضراء سنة (709هـ/1310م) ثم بعدها على جبل طارق[2]، وفي تلك الأثناء كان خايمي الثاني يحاول الاستيلاء على مدينة المرية[3]، والتي دام حصارها ستة أشهر، ذاق أهلها ويلات الحصار[4]، حتى تمكن شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء من تفريج كربة المدينة، بعد أنَّ تم الاستيلاء على جبل طارق، من ثمَّ أقامت القوات الإسبانية معسكرها على مدينتي شبانه وأصطبونة[5]، فزحف العباس بن رحو بن عبدالله وعثمان بن أبي العلاء لإغاثة المدينتين وهذا بأمر من سلطان غرناطة، فهزم بن أبي العلاء معسكر أصطبونة وقتل قائدهم ألفونسو ثم انطلق لنجدة العباس بن رحو الذي كان محاصراً من قوات النصارى، فانسحبوا بمجرد وصول خبر مجيء بن أبي العلاء، كما هزم شيخ الغزاة القوات التي بعثها ملك قشتالة للقضاء عليه وقتل قادتهم ووصل بن أبي العلاء إلى مشارف المرية ونزل قريباً من معسكر ملك قشتالة "وألح بمغاداتهم ومراوحتهم إلى أن رغبوا إليه في السلم وأفرج عن البلد"[6] وانتهت بذلك محنة مدينة المرية[7].

---

[1] ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص 60-61؛ عنان: نهاية الأندلس، ص 107.

[2] جبل طارق: هو جبل قريب من الجزيرة الخضراء، خرج منه طارق بن زياد فسمي باسمه، فافتتح بلاد الأندلس، بُني عليه مدينة كثيرة العمران، والماء والأشجار، اختطها الموحدين في عهد عبد المؤمن ابن علي، وصارت مدينة عامرة، وسميت بمدينة الفتح، وكانت بوابة لبلاد الأندلس؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص 121؛ الحميري: الروض المعطار، ص 121-122.

[3] الطوخي: مظاهر الحضارة، ص 33-34.

[4] ابن خلدون: العبر، ج7، ص 330؛ الحجي، عبد الرحمن علي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار القلم، بيروت، ط 2، 1981، ص 541.

[5] أصطبونة: أو أشتبونة وهي مدينة أندلسية ساحلية على حوض البحر الأبيض المتوسط تابعة لمالقة؛ ابن خطيب: الإحاطة، ج3، ص 53.

[6] ابن خلدون: العبر، ج2، ص 289.

[7] ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص 75.

كما كان لمشيخة الغزاة الفضل في رد أكبر خطر هجوم تعرضت له العاصمة غرناطة وذلك في سنة (719هـ/1319م)، بقيادة الوصيان على عرش ألفونسو الحادي عشر الدون بيدرو والدون خوان[1].

حيث دار المعركة عند هضبة إلبيرة على مقربة من غرناطة، والتي انتهت بنصر كاسح للمسلمين أعادت ذكريات الانتصارات الأندلسية الخالدة مثل الزلاقة وإفراغة والأراك، وذلك بمعونة فرقة مشيخة الغزاة المحبة للجهاد في سبيل الله بقيادة عثمان بن أبي العلاء، وفي الحقيقة أنَّ القشتاليون بعد النصر الذي حققوه في معركة وادي فرتونه سنة (716هـ/1316م)، فكروا في مهاجمة الجزيرة الخضراء والاستيلاء عليها ليحولوا دون وصول الإمدادات المغربية إلى الأندلس، ثم عدلوا عن ذلك وقرروا مهاجمة الحاضرة الإسلامية نفسها غرناطة، فأعد سلطان غرناطة أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر جيشاً صغيراً، ولكنه صفوة وخيرة المقاتلين، يقدر تعداده بسبعة الأف على الأكثر يقودهم القائد المغربي عثمان بن أبي العلاء وفرقته المغربية.

فزحف القشتاليون الإسبان بجيش ضخم تقدره الروايات بثلاثين ألف مقاتل يقودهم الدون بيدرو ولي العهد ومعه العديد من الأمراء، أضافة لفرقة إنجليزية متطوعة جاءت لنصرة الصليب، وفي (20 ربيع الأخير 718هـ/ 21 يونيو 1318م) التقى الجيشان رغم تفاوتهما الكبير، وأبدى المسلمون حماسة وحمية في القتال أنست الرائي الفرق الكبير بين الجيشين، وظهرت نوادر البطولة والشجاعة لم يرَ مثلها منذ عصور بعيدة، وبعد معركة شديدة استمرت ثلاثة أيام أنزل الله عز وجل نصره على المؤمنين، وقتل قائد الجيش الإسباني الدون بيدرو، ووضعت جثته في تابوت على سور الحمراء تنويهاً بالنصر،

[1] الطوخي: مظاهر الحضارة ، ص 36.

وتخليداً لذكرى المعركة وإذلالاً لأعداء الإسلام[1]، وعلى ذلك ذكر ابن خلدون: "ونصب رأس بطرة بسور البلد عبرة لمن يتذكر"[2].

وقد وقفت قوات مشيخة الغزاة إلى جانب السلطان محمد الخامس الغني بالله الذي حاول أن يسترد قرطبة وجيان التي كانت بيد القشتاليين، ففي سنة (770هـ/1396م) انتهز السلطان محمد الخامس انشغال القشتالين في حروبهم الداخلية على العرش، وقام بغزو المدينتين، واشتركت قوات مشيخة الغزاة بقيادة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن[3]، وقد استطاع شيخ الغزاة هذا أنَّ يخترق حصن قرطبة، حتى أن قوات المشيخة وصلت إلى أسوار المدينة وكادت أن تستولي عليها. وأنه لولا هطول الأمطار وكثرة الأوحال لتمكن المسلمون من استعادة عاصمتهم القديمة[4].

والجدير بالذكر أن قوات مشيخة الغزاة خاضت معارك عديدة إلى جانب دولة بني الأحمر حققت خلالها العديد من الانتصارات، وذكر لنا أبن الخطيب في ذلك وقال: "وعلى أيدي الفئة القليلة من المسلمين –مشيخة الغزاة– عظم النصر، وأسفر الليل، وأنجلت الشدة"[5].

[1] المقري: نفح الطيب، ج1، ص 450–451.

[2] ابن خلدون: العبر، ج7، ص 331.

[3] هو: عبد الرحمن بن أبي يفلوسن بن السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني أمير مراكش، عندما دخل الأندلس اصطفاه ابن الخطيب، فرفع رتبته ومنزلته في دولة بني الأحمر، فحمل السلطان على أن عقد له على الغزاة المجاهدين من زناتة؛ ابن خلدون: العبر، ج7، ص 448؛ الناصري: الاستقصا، ج4، ص 60.

[4] سالم، السيد عبد العزيز، العبادي، أحمد مختار: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1969م، ص 347؛ الطوخي: مظاهر الحضارة، ص 33–34.

[5] ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص 58.

4. دور مشيخة الغزاة في توطيد العلاقات بين بني الأحمر والمرينيين.

أدت مشيخة الغزاة دوراً مهماً إلى جانب دورها العسكري المتمثل في توطيد العلاقات الدبلوماسية بين كل من دولة بني الأحمر والمرينيين، وذلك بسبب المكانة التي حصدها عند العامة والخاصة، فساعدت فرقة مشيخة الغزاة على توثيق العلاقات السياسية، فلم تنقطع الصلات بين كل من المغرب والأندلس ولا سيما بعد أن تم تقسيم ورثة دولة الموحدين بين بني الأحمر في الأندلس وبني مرين في المغرب الأقصى.

وتجسدت العلاقات بينهما خاصة في العون المريني الذي تمثل في الرجال الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل الدفاع عن الأندلس، كما تباينت هذه العلاقات بين الودّ أحياناً والخلاف أحياناً أخرى.

وكان من أبرز مظاهر التفاهم في العلاقات بين المرينيين وبني الأحمر، وهو إسناد قيادة المتطوعين إلى أسرة من أقرباء السلطان المريني نفسه والتفاهم على تحديد مواصفات هذه الفرقة[1].

ومن بين مظاهر توثيق العلاقات بين الدولتين تمثل بتبادل الهدايا والسفارات والرسل، والتي كتب أغلبها لسان الدين ابن الخطيب على لسان سلطانه، وتعددت أغراض هذه السفارات ما بين أمور الجهاد وطلب العون والمصالحة وحتى المصاهرة، وكان لشيوخ الغزاة نصيب ووجود بهذه السفارات، فهذا الشيخ أبو زكريا يحيى بن رحو[2] شيخ الغزاة

[1] المقري: نفح الطيب، ج1، ص 452.

[2] هو: زكريا بن يحيى بن عمر بن رحو بن عبدالله بن عبد الحق، أنتقل بين أفريقيا والأندلس أثناء أزمة سبتة في عهد شيخ المجاهدين عثمان، ولما انتهت أزمة سبتة ورجع عثمان إلى الأندلس اصطفاه وزوجه ابنته، وولاه عثمان على مشيخة الغزاة في وادي آش، واستمر بها حتى عينه أبو الحجاج يوسف شيخاً للغزاة في غرناطة؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص 116؛ ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت: 733هـ/1333م): الدرر الكامنة في أعيان

يكلفه سلطان بني الأحمر أبو الحجاج يوسف بترأس سفارة أندلسية وتسليم رسالة للسلطان المريني أبي عنان فارس[1]، تتضمن تنويهاً بجهوده في أمداده بالمعونات من أسلحة ورجال[2].

كما كان السلطان محمد الخامس ووزيرة لسان الدين ابن الخطيب يمثلان بحق مظهراً من مظاهر العلاقات السياسية بين الدولتين، هذه العلاقات التي ترنحت بين المتانة من جهة والتوتر والنفور من جهة أخرى، ويظهر ذلك من خلال ما حصل لهما بالمغرب من توفير للأمن والحماية لهما بعد الانقلاب عليهما في الأندلس ولجوئهما إلى المغرب[3]، ثمَّ ما وقع للسان الدين من سجن ثمَّ قتل بالمغرب والتمثيل بجثته[4].

كما شارك شيوخ الغزاة في الوفود التي انطلقت نحو بني مرين لطلب العون وهو ما حصل مع شيخ الغزاة عامر بن عثمان بن أبي العلاء حيث شارك في الوفد الذي قادة السلطان النصري محمد الرابع المتوجهة نحو المغرب لطلب العون لإنقاذ جبل الفتح من عدوان النصارى في سنة (732هـ/1332م)[5].

المئة الثامنة، تح: محمد عبد المعيد خان، مجلس دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط2، 1972م، ج4، ص 216.

1 هو: فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب المريني أبو عنان المتوكل على الله، من ملوك الدولة المرينية بالمغرب، ولد بفاس الجديدة ونشأ محبوباً في قومة، لفضله وعلمه، وولاه أبوه إمارة تلمسان، ثمَّ ثار على أبيه وبويع في حياته سنة (749هـ/1349م)؛ الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد (ت: 1396هـ/1977م): الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م، ج 5، ص 127.

[2] ابن الخطيب، محمد بن عبدالله (ت: 776هـ/1373م):: كناسة الدكان بعد انتقال السكان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2003م، ص 141، 143.

[3] ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص 121-131.

[4] المقري: نفح الطيب، ج8، ص 282.

[5] شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ط1، 1985م، ج7، ص 324.

وعندما تم محاصرة تلمسان من قبل بني مرين تم طلب العون من قبل أبو يوسف يعقوب من وفد أندلسي كان متواجد في المغرب طلب منه تقديم العون والدعم لمحاصرة المدينة، فما كان من سلطان بني الأحمر سوى المحافظة على سير العلاقات فأرسل قوات أندلسية لمساندته وأبلو بلاءً حسناً وكان لهم نكاية في العدو[1].

ونافلة القول: أن مشيخة الغزاة أدت دوراً مهماً في توطيد العلاقات بين بني الأحمر وبني مرين، وذلك للمكانة المرموقة التي حصلت عليها في الأوساط الأندلسية بعد الدفاع المستمر عنهم ضد عدوان الممالك الإسبانية، وكذلك في البلاط المريني لصلة القربة التي كانت تربط شيخ الغزاة مع السلطان المريني، وبذلك فهي كانت تمثّل صل الوصل بين هذين الدولتين.

5. علاقة شيوخ الغزاة مع الممالك الإسبانية.

أن تواجد مشيخة الغزاة على الأراضي الأندلسية كان هدفها الرئيسي محاربة الممالك الإسبانية بدرجة الأولى، ففي الوقت الذي كانت فيه العلاقات مع مملكة قشتالة تتسم بالعداء والحرب المستمرة، إلا أنَّ علاقاتها مع مملكة أراجون تخلخلها في بعض الأحيان حالات من السلم والعلاقات الودية فيما بينهما، وحالة من السلم العام، بل وصلت في كثير من الأحيان إلى تبادل الهدايا والمراسلات وتقديم يد العون والمساعدة لهم، وكل ما يحتاجونه من خدمات.

فعندما توفي الفونسو الرابع أرسل شيخ الغزاة عامر بن عثمان بن أبي العلاء رسالة إلى ملك أراجون بيدرو الرابع يعزيه بوفاة والده، ولما أعتلى العرش بعد والدة أرسل سلطان بن عثمان بن أبي العلاء رسالة تهنئة للاعتلائه العرش.

[1] ابن خلدون: العبر، ج2، ص 2876.

في سياق العلاقات الودية بين شيوخ الغزاة وأراجون فقد كان يفد الكثير من الشخصيات المسيحية إلى بلاطهم، كالسيد إستبيان سانشت الذي طلب منه التوسط لدى ملك أراجون ليلحقه بالخدمة في البلاط الأراجوني[1].

وربما ترجع هذه السياسة التي أتبعها شيوخ الغزاة مع الممالك الإسبانية أنما لحماية المسمين وإيقاف الحروب وفك أسراهم من أيدي النصارى، وفي المقابل كان ملوك أراجون يحاولون تخفيف المنازعات بينهما وذلك للتصدي لأطماع مملكة قشتالة فيهم، وخاصة أن مملكة أراجونه مملكة فقيرة لم يكن لديها الإمكانات المادية والعسكرية التي بها تستطيع مواجهة المسلمين، لذلك حرصت دائماً أنَّ يكون بينهما وبين المسلمين حالة من السلم.

[1] سعيدان، عمر: العلاقات الإسبانية الأندلسية في القرن الرابع عشر ميلادي وسقوط غرناطة، منشورات سعيدان، تونس، 2003م، ج1، ص 148-181؛ شبانه، محمد كمال: يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1969م، ص 521-546.

الخاتمة:

واجهت دولة بني الأحمر الناشئة ثورات وحروب عدة، لا سيما مع الممالك الإسبانية التي شددت الخناق على مملكة غرناطة، من أجل السيطرة على كافة الأراضي الأندلسية وطرد المسلمين بشكل نهائي منها، ولما كانت دولة بني الأحمر هي أضعف حلقات الوجود الإسلامي بالجناح الغربي أمام تصاعد المد النصراني الإسباني، كان لزاماً عليها أن تستنجد بالقوة الإسلامية في كل مكان، وانطلاقاً من ذلك وجهت طلبات النجدة إلى الدولة المغربية الناشئة وهي دولة بني مرين، التي لم تتوانى في أرسال المساعدات المختلفة إلى إخوانهم في بلاد الأندلس، والتي تمثلت بالمساعدة في الرجال والمال والعتاد والتي أنشئت على أساسها ما عرف بقوات مشيخة الغزاة. ومن هذا توصلنا لمجموعة من النتائج:

1. أن زاد الخطر الاسباني على الوجود الإسلامي ولا سيما بعد أن أخذت المدن الأندلسية تسقط الواحدة تلو الأخرى في أيدي الممالك الإسبانية، واشتداد المعارك بينهم وبين حكام بني الأحمر فقد أرسلت دولة بني مرين فرقة مشيخة الغزاة من أجل البقاء في غرناطة للدفاع عنها في حروبها.

2. أدى الموقع الجغرافي لبلاد الأندلس القريب من دولة بني مرين في سهولة انتقال هذه الفرقة وتزويدها بالمال والعتاد.

3. كان حب الجهاد في سبيل الله أحد أهم العوامل التي أدت إلى ظهور هذه الفرقة، والتي وجدت ضالتها في المعارك التي تدور في الاراضي الأندلسية.

4. كانت المهمة الأساسية لفرقة مشيخة الغزاة هي الدفاع عن غرناطة والمسلمين الموجودين في أرض الأندلس، لكن في المقابل حقق بني مرين من هذه الفرقة العديد من

المكاسب، بما فيها الغنائم التي كانوا يجنوها من معاركهم ضد الإسبان، هذا بالإضافة إلى الرواتب التي كانوا يتقاضوها من حكام بني الأحمر، كما استطاعوا التخلص من بعض الشخصيات التي شكلت خطراً على العرش المريني من خلال إرسالهم إلى غرناطة، حيث يكون مصيرهم الإبعاد عن المغرب أو الموت في ساحات المعارك.

5. ومن الممكن أن يكون هدف دولة بني مرين من إرسال هذه القوات محاولة منهم إخضاع غرناطة لحكمهم المباشر، كما فعل من قبلهم المرابطين والموحدين، حيث كان تدخلاتهم في بداية الأمر لصدّ الهجمات الإسبانية، من ثمَّ ضمها لحكمهم.

6. ولا يمكن أن نغفل الدور الكبير الذي أدته فرقة مشيخة الغزاة في الدفاع عن غرناطة، والمعارك التي خاضوها من أجلها إذ تمكنوا من استرجاع العديد من المدن التي سقطت في أيدي الممالك الإسبانية.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

1) الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت: 626هـ/1228م): معجم البلدان، تح: عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، لبنان، د.ت.

2) الحميري، محمد عبد المنعم (ت: 900هـ/1495م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1975م.

3) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت: 733هـ/1333م): الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تح: محمد عبد المعيد خان، مجلس دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط،2، 1972م.

4) ابن الخطيب، لسان الدين الغرناطي (ت: 776هـ/1373م): الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1973م.

5) ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله (ت: 776هـ/1373م): ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تح: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1980م.

6) ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله (ت: 776هـ/1373م): نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تح: أحمد مختار العبادي، مراجعة: عبد العزيز الأهواني، القاهرة، د.ت.

7) ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله (ت: 776هـ/1373م): اللمحة البدرية في الدولة النصرية، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1980م.

8) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت: 808هـ/1406م): العبر في ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979م.

9) ابن أبي زرع، علي الفارسي (ت: 741هـ/1341م): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م.

10) ابن أبي زرع، علي بن عبدالله الفارسي (ت: 741هـ/1341م): الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، الرباط، 1972م.

11) القلقشندي، أحمد بن علي (ت: 821هـ/1418م): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1914م.

12) المراكشي، محي الدين عبد الواحد(ت: 1250/647م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: محمد سعيد العريان ومحمد العربي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط 1، 1929م.

13) المقري، احمد بن محمد التلمساني (ت: 1041هـ/1632م): نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تح: احسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.

14) مؤلف مجهول (ت: في القرن الثامن عشر): الحل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1979م.

15) الوزان، حسن بن محمد الفاسي (ت: 939هـ/1532م): وصف أفريقيا، تر: محمد حجي، محمد زنبير، د.د، بيروت، 1983م.

16) الناصري، أحمد بن خالد (ت: 1315هـ/1897م): الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى، تح: جعفر الناصري و محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م.

ثانياً: المراجع العربية:

1) الحجي، عبد الرحمن علي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار القلم، بيروت، ط 2، 1981.

2) ذنون، عبد الحكيم: أفاق غرناطة، دار المعرفة، دمشق، ط1، 1988م.

3) الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد (ت: 1396هـ/1977م): الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م.

4) سالم، السيد عبد العزيز، العبادي، أحمد مختار: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1969م.

5) سالم، السيد عبد العزيز: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1985م.

6) سعيدان، عمر: العلاقات الإسبانية الأندلسية في القرن الرابع عشر ميلادي وسقوط غرناطة، منشورات سعيدان، تونس، 2003م.

7) شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ط1، 1985م.

8) شبانه، محمد كمال: يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1969م.

9) أبو ضيف، مصطفى أحمد: أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصر الموحدين وبني مرين، الدار البيضاء، الإسكندرية، 1983م.

10) الطوخي، محمد أحمد: مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997م.

11) العبادي، أحمد مختار: صورة من حياة الحرب في الأندلس، منشأة دار المعارف، الإسكندرية، 2000م.

12) عنان، محمد عبدالله: دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م.

13) عنان ، محمد عبدالله: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، مكتبة الخانجي، القاهر، 1997م.

14) مؤنس، حسين: تاريخ المغرب وحضارته، العصر الحديث، بيروت، ط1، 1992م.

15) منصور، عبد الوهاب،: قبائل المغرب، د.د، الرباط، 1968م.

ثالثاً: الدوريات:

1) عنان، محمد عبدالله: موقف القسطنطينية وباقي العالم الإسلامي من سقوط الأندلس وآخر مسلميها وأمام الغزو الأوروبي للعالم الإسلامي عموماً، مجلة الأصالة، الجزائر، 1975م، العدد 27.